«يا أم الشهيد وزغردي، كل الشباب أولادك... يا شهيد ارتاح ارتاح، واحنا بنكمل المشوار»، لا نلبث ان نتبيّن خفوت بكاء ام الشهيد، ويعلو الصوت رويداً رويداً:

«آويها ويا أبو عمار يا خيمتنا / آويها والشعب الفلسطيني قاعد فيها / آويها ويا نصّور يما يا شمعتنا / آويها ويموتو اللي يطفوها... / آويها ويا فلسطين يا خيمتنا / آويها والشعب الفلسطيني قاعد فيها / آويها ويموتو اللي يطفوها / آويها ويا نصّور يا شمعة الذهب / آويها والمسك في بابها / آويها ومهما المصايب كسرت اعتابها / آويها وشباب فلسطين ليكملوا مشوارها»[٢٢].

ولا تتوقف الأم عن الذهاب الى ضريح الابن من آن الى آخر. وهناك تردد:

«نام يا نصّور نام / لاذبح لك طير الحمام / هلي يا دموعي الف هلّة / على اللي انهال فوقه التراب ألف هلّة / هلا بقمر الهلالي هل هلّة / وضوى بهلّته قلوب الشباب»[٢٣]. وبهذا امتزج الحزن بالأسى بالاحساس بالثمن الذي يجب ان يدفعه الانسان الفلسطيني ازاء ما يواجه.

اللهجة الفلسطينية

ويرتبط بذلك كله ما يلاحظ من سيادة العامّية في لغة الحوار في رواية «الانتفاضة»، وهي العامّية الفلسطينية بوجه خاص، وهو ما يحمل دلالة ان اللهجة المحكية الفلسطينية، بخصوصيتها وتميّزها، تحمل قدرة أكبر على توصيل المضامين، وهو ما يسهم في تقريب التعبير القِيَمي بالنسبة للمتلقّي. ولا يعني ذلك ان لدينا أكثر من لغة للكتابة، لغة الروائي ولغة الشخصيات، وانما تظل هي لغة واحدة، تتفرع قبل التقائها الى اثنين: السرد على لسان الروائي ولغة السرد على لسان الآخرين. وهذا لا يشير الى براعة الروائي، فقط، في ايصال ما يريده، وانما، أيضاً، الى الاحساس بضرورة تعميق «الهوية» في اطارها العربي في مواجهة الهوية الاخرى في اطارها المغاير.

ويؤكد هذا ما يلاحظه الروائي محمد وتد من ان اللهجة المحكية لا تسود في حوار العمل الفني وحده، وانما من السهل ان نعثر، من آن الى آخر، على استخدام الفصحى في موضع، والعامّية في موضع آخر، ممّا يسهم في تأكيد التجانس اللغوي الذي يحتشد ليعيد انتاج الدلالة بالشكل الذي يقربه من الاثر الذي يسعى اليه. ان ذلك يرد في النص الروائي نفسه، اننا في «زغاريد الانتفاضة» نقرأ: «سيفتشون الخربة»، قال عباس. «لا أرى مانعاً ان تتسلّحوا الليلة... لكن كيف تتصوّروا الليلة التي تأتي بعدها؟». كان عباس يتحدث بالفصحى، متيقناً ان كلاماً كثيراً سيقال، «لأن الفصحى تعطي للمتكلم وقتاً أكثر للتفكير، وتقلّل من الانفعال».

ويلاحظ، هنا، ان الروائي حاول توظيف العامية في وقت، في حين حاول توظيف الفصحى في وقت آخر. وممّا له دلالة عميقة في طريقة استخدام اللهجة المحكية الفلسطينية احياناً، والفصحى أحياناً أخرى، ان الروائي (ويشترك في ذلك روائيو الانتفاضة بشكل عام) كثيراً ما كان ينسب الى المحكية أو الفصحى عبارات أو مقاطع من العبرية وليس من العربية فقط. اننا في «زغاريد الانتفاضة» نسمع الجندي الاسرائيلي يستغيث بزميله بالعبرية، في حين لا يهمل الروائي العربية، فتأتي العبارة على هذا النحو:

«نسرافتي... هِتْسلو... نسرافتي (ولعت...انقذوني... ولعت)»[٢٤].

أمّا في نص «الجراد» فنقرأ عبارة الجندي اليهودي وهو يصيح في احد العرب: «ـ يلا روخ... روخ عالبيت... امشي عرفي ملوخلاخ». وأضاف الروائي في الهامش عبارة تفسيرية هي «عربي